مدرسة قد سمح

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة السابعة عشر

علاء حامد

Alaa Hamed

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

مرحبًا بكم في اللقاء الأخير من دورة "قد سمع"، نسأل الله القبول والتوفيق.

تناولت الدورة سور الجزء المبارك بما فيها من أخلاق وعقيدة وأحكام وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم وتكريم للمرأة.

تم بحمد الله شرح بداية سورة التحريم، وبيان قصة عتاب الله للنبي صلى الله عليه وسلم وللسيدة عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وبيان لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم وعظيم قدره، وتوجيه المؤمنين للاهتمام بأهليهم وتربيتهم لحمايتهم من النار، وبيان حال الكفار يوم القيامة.

مشهد اعتذار الكفار يوم القيامة

(الآية 7)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

انعدام فرصة الاعتذار لله يوم القيامة، ومحاولات الكفار اليائسة للنجاة، كلها باءت بالفشل ومنها:

الإنكار والكذب: فيحلفون أنهم لم يكونوا مشركين، قال تعالى:

﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

فيُفضح كذبهم.

وفي آية أخرى قال تعالى:

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

[الأنعام: ٢٤]

قال الله تعالى عنهم:

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]

الاعتراف: وطلب الرجوع للدنيا ليعملوا صالحًا، لكن هذا الطلب يُرفض.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠٦-١٠٧]

قال تعالى:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]

فتكون نهاية محاولاتهم:
﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]
ثم يحاولون مخاطبة مالك خازن النار:
﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]
وأخيراً يطلبون من خزنة جهنم تخفيف العذاب أو الموت:
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]
فيقال لهم:
﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٥٠]
يصل حال الكافر أن تكون أمنيته فقط تخفيف يوم واحد من العذاب! ليس الخروج، ولا الموت، بل مجرد التخفيف.

الحياة ليست مجرد زمن نعيشه ما دمت حيًّا، فأنت تملك القدرة على الرجوع وتصحيح المسار؛ أمّا بعد الموت، فلا ندم ينفع ولا اعتذار يُقبل.
ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
"إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ"
وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان محسنًا فلعله يزداد، وإن كان مسيئًا فلعله أن يستعتب".
أي: يعتذر العبد إلى الله سبحانه وتعالى.

(الآية 8)
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾
نداء إلى المؤمنين: **ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله، وإلى ما يرضيه عنكم.**
اجعل لك بعد هذه المحاضرة قراراً واضحاً: أن تتوب من ذنب، أو ترجع إلى الله.
يدعونا الله للتوبة ويحب أن يغفر لنا، بل ويفرح بتوبة العبد، فمهما أخطأت، إذا رجعت إليه بصدق، يقبلك ويعفو عنك

معنى التوبة النصوح
أي: توبة خالصة صافية من الشوائب.
وأصل الكلمة من قول العرب: "نصحت العسل" أي صفّيته من الشوائب.
شروطها :
1. أن تكون التوبة خالصة لوجه الله تعالى.
2. الندم على ما فعل من الذنوب والمعاصي.
3. الإقلاع التام عن الذنب.
4. العزم الصادق على عدم العودة للذنب.
5. ردّ الحقوق لأصحابها إذا كانت هناك مظالم.
6. الإكثار من الأعمال الصالحة تكفيرًا للسيئات.
فإذا تحققت هذه الشروط، كانت التوبة نصوحًا؛ وأي نقص في ذلك يجعل التوبة غير كاملة.
التوبة غير النصوح:
هي توبة غير خالصة لله أو غير صادقة، يشوبها نقص في النية أو العزم.
ومن أمثلتها:
التوبة لأجل الناس (رياءً أو طلبًا للمدح).
ترك الذنب لعدم القدرة عليه، لا كراهية له.
ترك المعصية لأسباب دنيوية مثل: الخوف، المصلحة، أو الفقر، أو المرض.
من يترك الذنب مؤقتًا، فلو زال السبب عاد إليه.
علامة الندم الصادق ألم القلب عند تذكر الذنب، وكثرة الاستغفار عند تذكره، ولا يفتخر به ولا يتلذذ بذكره.
من دلائل خلل التوبة:
التلذذ بذكر المعصية أو التفاخر بها.
الاستمرار في الذنب مع ادعاء التوبة.
نية الرجوع للمعصية لاحقًا (توبة مؤقتة).
عدم ردّ الحقوق لأصحابها.

خاتمة النداءات للمؤمنين جاءت بالتوبة
يُعد النداء في سورة التحريم آخر نداء لأهل الإيمان في ترتيب المصحف. فاللهم اختم لنا بتوبة صادقة قبل الممات.
وكأنها رسالة ربانية ترافق المؤمن إلى آخر عمره:

مهما قصّرت، ومهما أذنبت، فباب التوبة لا يُغلق فاجعل خاتمتك توبة صادقة، لعلها تكون سبب نجاتك، وخاتمة أمرك.

المداومة على التوبة

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إني لأتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة."

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُم﴾

"عسى" في كلام البشر تفيد الرجاء، أما من الله فهي وعد محقق، ولذلك قال العلماء:

"عسى من الله واجبة"، أي متحققة الوقوع، ووعد من الله لمن تاب أن يغفر له.

إن الوقوع في الذنب وارد، لكن لا مكان لليأس مع التوبة المتكررة.

قال صلى الله عليه وسلم:

"كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون."

والله لا يملّ من المغفرة حتى يملّ العبد من التوبة.

قيمة الإنسان في توبته لا في عصمته؛ فيسارع بالرجوع عندما يخطئ، فليس أحد معصوم، بل حتى الصالحون يخطئون، لكنهم لا يُصرّون على المعصية.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾

فالله لا يكتفي بالمغفرة، بل يُكرم عباده بالجنة، التي هي أعظم من أعمالهم.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾

كرامة النبي والمؤمنين يوم القيامة، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم:

"اللهم لا تخزني يوم القيامة"

وكان يبكي خوفًا على أمته، وقد وعده الله عز وجل أن يرضيه في أمته ولا يَسُوءُهُ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يشفع لأمته يوم القيامة، وقد استجاب الله عز وجل له.

والخزي هو خزي يوم القيامة، أي العقوبة؛ فطالما أنه لا يُخزي، فهذا يعني أنه لا يُعذبهم.

التفريق بين مقام الأنبياء:

إن هذه الدعوة المباركة شبيهةٌ بدعوة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]

فعندما ذكر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام، كان التركيز على الدعوة نفسها.

أما عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان التركيز على استجابة الدعوة واقتران المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم في عدم الخزي فيه تشريف وتعظيم لهم، وهذا يظهر الفرق بين مقامه صلى الله عليه وسلم وبقية الأنبياء.

تعد الآية وعدًا إلهيًا لبيان الفوز العظيم.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾

يُعطى الإنسان يوم القيامة نورًا على قدر عمله.

في بداية المشهد يوم القيامة، يكون المؤمنون والمنافقون معًا، لأن الله سبحانه وتعالى يمكر بالمنافقين ويجزيهم على نفاقهم، فيجعلهم مع المؤمنين، فيظنّ المنافق أنه قد نجا كما كان مستترًا في الدنيا، ثم يحدث تمييز الصفوف: يتقدّم المؤمنون بنورهم ويبقى المنافقون في الظلمات ثم يُضرب بينهم بسور، ويبدأ العذاب على المنافقين. حينها عندما يرى المؤمنون أن نور المنافقين قد انطفأ، يخافون ويقولون: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

ينبغي للمسلم أن يُكثر من هذا الدعاء: "ربنا أتمم لنا نورنا."

هذا الدعاء يحمل رسالة عظيمة: أن هناك دائمًا المزيد من النور وأن الإنسان لا يكتفي بما وصل إليه وأن يطلب الأعلى دائمًا؛

فالقرآن نور: قراءته، وحفظه، وفهمه، والعمل به.

والصلاة نور: فأحسن صلاتك، وزد بالنوافل، وقيام الليل، وصلاة الضحى.

ومن أعظم الأنوار: الذهاب إلى المسجد لصلاة الفجر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"بشر المشائين في الظلم بالنور التام يوم القيامة."

فإن لم تكن محافظًا على صلاة الفجر في المسجد، فقل: "ربنا أتمم لنا نورنا"، داعيًا الله أن يهديك لذلك.

الشريعة كلها نور، بل الدين كله نور.

قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾

[المائدة: ١٥]

نصيبك من النور في الآخرة هو على قدر نصيبك من النور في الدنيا.

وقد قيل: "لما سعوا وراء النور في الدنيا، فسعى بين أيديهم في الآخرة".

يكون النور على قدر: العمل الصالح، وصحة الاعتقاد.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾

الإيمان الصحيح، على منهج أهل السنة والجماعة، فكلما كانت العقيدة صحيحة:

كان النور أعظم، ثم يزيد بقدر العمل الصالح. واحرص ألا تبتدع في الاعتقاد، أو في العمل، أو تقصر في الطاعات.

"وإذا استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل".

(الآية 9)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

جهاد الكفار يكون بعدة أنواع:

1. جهاد القلب: بإنكار كفرهم والبراءة منهم.
2. جهاد اللسان: بدعوتهم إلى الله ونصحهم وبيان فساد معتقدهم.
3. جهاد الحجة: بالمناظرة والرد على الشبهات.
4. جهاد القلم: بالكتابة والتأليف والنصح.
5. جهاد اليد (عند القدرة): وهو القتال في سبيل الله.

أما جهاد المنافقين:

فهو يشبه جهاد الكفار، لكن لا يكون بالقتال (باليد)، وإنما يكون:

1. بالقلب: ببغض نفاقهم وعدم الرضا به.
2. باللسان: ببيان باطلهم والتحذير منهم.
3. بالنصح والتشديد: بنصحهم والإنكار عليهم عند الحاجة.
4. بإقامة الحدود: إذا ظهر منهم ما يستوجب ذلك شرعًا.

وذلك لأن المنافق غالبًا سلاحه لسانه، فيُواجه بما يناسبه.

كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]

فالحل: بالتضييق والرد عليهم، وعدم تمكينهم، والتحذير منهم.

(الآية 10)

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾

القرب من الصالحين لا ينفع بدون عمل صالح.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه."

خطر الاغترار بالعلاقات: **فلا يكفي صلاح من حولك، ومصاحبة الصالحين أو مجالسة العلماء دون عمل. بل لا بد من عملك أنت، فالصحبة الصالحة تنفع إذا صاحبها اقتداء وعمل.**

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾

بإجماع العلماء؛ ليس المقصود خيانة الفراش، أو العرض، فلم تزنِ امرأة نبي قط.

والخيانة هنا كانت في الدين، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يُنزّه أنبياءه عن الأمور التي تقدح في مقامهم.

وفي هذا دليلٌ على براءة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وأرضاها من حادثة الإفك، وقد برأها الله عز وجل، **فقال تعالى:**

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]

لا يبتلي الله نبيًّا بهذا، فقد تكون زوجته كافرة، لكنها لا تكون زانية.

ولهذا ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

"ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما في الدين."

وفي أثرٍ آخر عنه أنه قال:

"خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، **فكانت امرأة نوح تطلع على سرّ نوح**، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها، **وأما امرأة لوط فكانت** إذا ضاف لوطًا أحد خبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء".

حال امرأة نوح وامرأة لوط:

كان دورهما الإعانة على المعصية ونشرها، أي السعي لوقوع الفاحشة دون فعلها مباشرة.

امرأة نوح عليه السلام: **كانت كافرة، تؤذي الدعوة بكشف المؤمنين وإبلاغ قومها عنهم.**

امرأة لوط عليه السلام: **كانت راضية بفاحشة قومها، وتدلّ عليها، وتُخبرهم بقدوم الضيوف. إذ كانت الفاحشة بين الرجال.**

كما قال لوط عليه السلام:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]

خطورة الرضا بالمعصية:

أن من يرضى بالمعصية كمن يفعلها؛ فليس شرطًا أن يفعل الإنسان المعصية ليأثم، بل يكفي أن يرضى بها أو يبررها.

فلا يفعل الحرام، لكنه يراه أمرًا عاديًا أو حرية شخصية، فيقع في خطر عقدي.

كقبول بعض المعاصي المنتشرة والدعوة للاعتراف بها، دون فعلها، وقد كانت امرأة لوط كذلك: لم تفعل الفاحشة، لكنها رضيت بها، فهلكت.

فالدلالة على المعصية كفعلها

ومن الأمثلة على ذلك:

أمٌّ ملتزمة تلبس بناتها لباس التبرج.

أب لا يفعل الحرام، لكنه يرسل أبناءه إليه.

شخص لا يرتكب الفاحشة، لكنه يساعد غيره عليها.

إن خيانة العقيدة هي أعظم خيانة، كما وقع لامرأتي نوح ولوط.

قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]

دروس وعبر من القصة:

1. ينبغي للمرأة الصالحة أن تعين زوجها وتسانده على الحق، ولا تتخلى عنه، فإن تركه خيانة لميثاق الزواج.
2. لا يُغترّ بأمانة الكافر في المال أو المعاملات، لأنه خان أعظم أمانة، وهي أمانة الدين.
3. لا تتعجب من الخيانة قد يصدم الإنسان بخيانة من أحسن إليهم، لكن هذه طبيعة بعض القلوب القاسية.
4. الهداية بيد الله قد تبذل كل جهدك لهداية من تحب، لكن:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

5. الابتلاء في الأسرة قد يكون الرجل صالحًا ويُبتلى بزوجته، أو العكس. فلا يلزم أن يكون ذلك بسبب تقصير.
6. الصبر على الابتلاء أجره عظيم، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠]

7. لا ينفع الإنسان صلاح غيره إن كان عمله فاسدًا.

(الآية 11)

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

هي آسية بنت مزاحم، التي كانت مثالًا للثبات والإيمان رغم كفر زوجها، فقد كان من أعظم الطغاة، ومع ذلك آمنت، فصارت من أفضل نساء الجنة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"أفضل نساء الجنة: خديجة بنت خويلد، فاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم."

الظروف ليست مبررًا وعذرًا فلا يُعذر الإنسان بفساد البيئة أو صعوبة الواقع، فالحق يُتبع في كل حال. وكان يوسف عليه السلام مثال ذلك؛ ثبت على دينه في بيئة فاسدة، في السجن والملك، حتى شهد له بالإحسان:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]

من إيمان آسيا وسط الطغيان أنها لما رأت موسى عليه السلام رضيعًا وأخذته راجية للخير فيه:

قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]

ولما علم فرعون بإيمان زوجته، اشتدّ غضبه وأمر بتعذيبها. فثُبِّتت يداها ورجلاها بالأوتاد، وتُركت تحت أشعة الشمس الحارقة في الصحراء. وكان يأتيها بين حين وآخر، يطلب منها أن تتراجع عن إيمانها، لكنها كانت ترفض بثبات، وفي أثناء ذلك، أكرمها الله بأن أرسل ملائكة تظلّلها، تخفيفًا عنها. ولما أصرت على إيمانها، أمر فرعون بإلقاء صخرة عظيمة عليها لتُقتل بها. لكن الله برحمته قبض روحها قبل أن تصل الصخرة إلى جسدها، فلم تشعر بالألم، وكان ذلك لطفًا وتكريمًا لها.

كلما اشتد البلاء، زاد عون الله؛ فقد أراها بيتها في الجنة، فهان عليها العذاب، كما يخفف الله عن الشهداء.

المرأة مع الزوج الكافر

خالفت آسيا فرعون في كفره، ولم يضرّها ذلك.

قال قتادة: "ما ضرّ إمرأة كفر زوجها حين أطاعت ربها"

فالله لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه.

قد يعيش الإنسان في أشد البيئات فسادًا، ومع ذلك يبلغ أعلى المراتب بصدق الإيمان والصبر.

الله ينصر المؤمنين، ويجعل البلاء زيادةً في إيمانهم، ويأتيهم بالفرج في أشد اللحظات.
﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾
لما ثبتت آسيا بنت مزاحم، طلبت من الله بيتًا في الجنة.
لقد كان ثباتها نتيجة معرفتها بالحق ورفضها للباطل، فمن ذاق الباطل وعرف حقيقته، كان أشد تمسكًا بالحق وأبعد عن الرجوع إليه، كما كان حال الصحابة رضي الله عنهم.
وكلما استحضر الإنسان الآخرة، ازداد ثباتًا واستقامة.
قال أنس بن النضر في غزوة أحد: "إني لأجد ريح الجنة من وراء أحد"، واقتحم صفوف المشركين بشجاعة مستحضرًا الآخرة.

قراءة القرآن وتدبره وذكر الآخرة يرسخان الصبر والاحتساب، ويجعلان القلب عارفًا للحق، فتذوب ملذات الدنيا الزائلة أمام يقين النعيم الأبدي كما تجلّى في قلب آسيا، التي رفضت كل مظاهر الظلم والفساد التي كان يمثلها فرعون، كما عبّر إبراهيم عليه السلام:
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]
فالاستقامة لا تتحقق إلا بالولاء للحق والبراءة من الباطل، فالإيمان الحقيقي يقتضي الابتعاد عن كل طريق يؤدي إلى الضلال.
لقد نجّى الله آسيا فحافظت على دينها وكرامتها، وأكرمها بالشهادة فلم تشعر بألم العذاب، فكان ثوابها الحقيقي النجاة والفوز عند ربها.
وكذلك كانت ماشطة بنت فرعون تعمل في قصره، وقد آمنت بالله سرًا. فلما علم فرعون بإيمانها، أمر بتعذيبها هي وأولادها حرقًا، لترجع عن دينها، لكنها صبرت وثبتت.
وأمام عينيها، أُلقي أولادها واحدًا تلو الآخر في النار، وهي محتسبة صابرة. حتى جاء دور طفلها الرضيع، فتعلّقت به وكادت تضعف من شدة الألم.
عندها أيّدها الله، فأنطق الرضيع قائلًا: "يا أمّاه، اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة".
فازداد ثباتها، وألقت بنفسها في النار.
تُعدّ تضحية آسيا أعظم من تضحية ماشطة بنت فرعون؛ لأن آسيا كانت تعيش في قمة النعيم والسلطة، وتملك المال والخدم وكل أسباب الراحة، ومع ذلك اختارت الإيمان
أما الماشطة، فرغم عظيم ثباتها وأجرها الكبير، إلا أنها لم تكن تملك من متاع الدنيا ما يجعل التضحية بنفس الدرجة.
العبرة أن الالتزام الحقيقي لا يكون هروبًا من الدنيا، بل يكون اختيارًا لله، حتى عندما تكون الدنيا بكل مغرياتها متاحة للإنسان، فيتركها طاعةً لله.

رسالة للفتيات:

آسيا بنت مزاحم كانت تتمتع بالثروة والجمال والراحة، ومع كل المغريات التي أحاطت بها، اختارت طريق الله وفضلته على كل شيء، فكانت أعلى منزلة من غيرها ممن التزموا رغم الفقر أو الشدة.

بينما يضطهد فرعون المؤمنين إذا بالإيمان يضطهد بيته، فمن يطفئ نور الله تعالى؟!

ذكر الله دعاءها ليدلّ على أن الدعاء الصادق سبب لرفعة الدرجات، ومن أعظم صور العبودية لله تعالى.

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

براءتها من طغيان زوجها وأفعاله.

لا يستقيم الإنسان على الهدى إلا إذا تبرأ من طرق الضلال.

(الآية 12)

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

اختارها الله واصطفاها وطهرها وجعلها من أعظم نساء العالمين.

فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" كمل من الرجال كثير، وما كمل من النساء إلا آسيا امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

مريم ابنة عمران نموذج للابنة الصالحة في أسرة صالحة

كانت نشأتها في بيت والدها عمران عليه رحمة الله، الذي أرسى قواعد الطاعة والزهد والعبادة في حياتها، فكانت تربيتها متوافقة مع المبادئ الصالحة.

الحفاظ على العفة والطاعة، هو ما يميز المرأة الصالحة عن غيرها، ويجعلها نموذجًا يُحتذى به.

الضغط الاجتماعي والشهوات هي التحديات الكبرى للمرأة:

أي فتاة تواجه في حياتها مساحتين رئيسيتين من الاختبار:

الضغط الاجتماعي: تأثير المجتمع عليها بما يفرضه من سلوكيات أو توقعات، وقد يشكل اختبارًا لقدرتها على الالتزام بالقيم الصحيحة.

فتنة الشهوات: محاولة الانجذاب إلى علاقات محرمة أو مغريات جسدية، سواء بالكلمات أو المظاهر أو الصور، وهذا اختبار لحفظ النفس والطهارة.

فالمرأة غالبًا ما تتأثر بسهولة بالكلمات الرقيقة أو الإطراء العاطفي، لذلك كانت آسيا امرأة فرعون مثالًا للصلابة أمام الضغوط، وحافظت مريم على عفتها في كل المواقف.

قد تواجه بعض الفتيات اليوم صعوبة في الالتزام بالحجاب أو الاستقامة بسبب تأثير المجتمع أو المغريات المحرمة.

العفة والطهارة: حماية ورفعة للمرأة

العفة أعلى درجات الحفظ؛ وهي حماية النفس من كل ما يفسدها، وتجنب العلاقات المحرمة، والنظر بشهوة، والعادات السيئة، وكل ما يسيء إلى الشرف.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾

فقد حفظت مريم طهارتها وصانت نفسها عن الحرام، وهذا يظهر أهمية العفة والطهارة في حياة المرأة.

الحفاظ على العفة يمنح المرأة تميزًا ورفعة عند الله، سواء بالحجاب أو بالابتعاد عن العلاقات المحرمة.

مريم بنت عمران نموذج للعبادة والطاعة

كانت مريم تخدم بيت المقدس، وتميزت بالعبادة والعبودية الخالصة، مع الحفاظ على عفتها.

جاءها جبريل عليه السلام على هيئة بشر، ففزعت منه وقالت:

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

[مريم: ١٨-٢١]

هذا يوضح حياءها وعفتها وحفاظها على طهارتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾

أرسل الله جبريل فنفخ في جيب درع مريم العذراء، فوصلت النفخة الرحم، فحملت بعيسى عليه السلام.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾

نسبة تشريف فقط.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾
رضيت بأقدار الله، وصدّقت بشرائع الله وكتبه المنزلة.
﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾
أي كانت مداومة على العبادة والطاعة، خاضعة لأوامر الله.
التعبير بصيغة المذكر ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنها قد بلغت في الطاعة درجة عالية، حتى عُدّت في زمرة أكمل العابدين، وغالبًا ما يُعبَّر عنهم بصيغة المذكر للتغليب، وشدة الطاعة.

فائدة من ذكر ﴿ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ العفة والطهارة تجعل المرأة سببًا لرفع شأن أسرتها وذكرها والديها بالخير.
والبركة والأثر الصالح يمتد من المرأة إلى الأسرة كلها.
المرأة الصالحة والملتزمة تجعل من بيتها ومن أسرتها مثالًا يُحتذى به، بينما انعدام العفة يشوه السمعة ويضع الأسرة في مواقف محرجة.
الحفاظ على العفة والطاعة والاجتهاد في العبادة يرفع المرأة عند الله ويجعلها سببًا للخير لعائلتها.
ينبغي للرجال أن يروا في هذه النماذج النسائية حافزًا لهم للجد والاجتهاد والعمل الصالح.

نسأل الله أن يعلمنا وإياكم ويثبتنا على الصراط المستقيم، ويجعلنا من الفائزين بالجنة، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته